مساهمة علماء الجزائر العاصمة في إثراء أدب الرحلة
رحلة عبد الرحمن الثعالبي (ت: 875ه) أنموذجا

The Algiers capital scholar's contribution to enrich the literature of traveling « the Abd El Rahmane El Thaalibi travel (D ; 875 hijra)- model-»

د. شميسة خلوي*

ج. الجزائر2

تاريخ الإرسال:2017/07/16 تاريخ النشر:2018/01/21

الملخّص باللّغة العربية: لقد ساهمت الجزائر في إثراء الحركة الثقافية العربية والإسلامية منذ قرون، وعرفت بروز أعلام ذاع صيتهم في المشرق والمغرب ومنهم العلامة عبد الرحمن الثعالبي أحد أبرز علماء الجزائر في القرن الخامس عشر ميلادي، وسنحاول عبر هذا المقال أن نبرز مكانة هذا العالم الجليل ومساهمته في أدب الرحلة تحديدا، نظرا لكون رحلته مغمورة مقارنة بشهرته في تفسير القرآن.

وسنقف عند سيرته الذاتية، ثم نحدِّد المفاهيم العامة لأدب الرحلة ومميزاتها وبعدها نبسط الحديث عن رحلة الثعالبي، عرضا وتحليلا، والتي جاب عبرها بلدانا مختلفة، واستغرقت حوالي 17 عاما من عمره.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلات، الجزائر؛ عبد الرحمن الثعالبي؛ القرن 15 ميلادي.

* Dr.choumayssa-khaloui.hotmail.fr

Abstract: Algeria has contributed to the enrichment of the Arab and Islamic cultural movement for centuries, and has known the emergence of scholars, well-known in the Levant and the Maghreb. Among these scholars, Abd al-Rahman al-Tha'alabi can be stated. He was the most prominent Algerian scholar in the fifteenth century. In this paper, we will try to highlight the status of this great scholar and his contribution to the literature of the journey. Precisely, because his journey was unknown compared to his fame in the interpretation of the Qur'an.

Furthermore, we will define the general concepts of the literature of the journey and its features, and, then, analyze the journey of Al-Thaalibi who had been in different countries for 17 years in his lifetime.

Keywords: Literature of journey, Algeria, Abd Al-Rahman Al-Thaalibi, 15th century.

توطئة: إرث حضاري تتمتَّع به الجزائر، وتاريخ ثقافي أسفر عن نتاج مميّز من الآثار الأدبية والعلمية لعلمائها عبر مختلف العصور، يكشف عن مساهمة بلدنا في الثقافة العربية والإسلامية خصوصا والإنسانية عموما.

وقد ساهم علماء مدينة الجزائر في هذه الحركة العلمية والثقافية بشكل ملفت للانتباه، هذه المدينة التي «تنبثق عن عدّة عهود تاريخية ضاربة في القدم إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة» [1]، ومن الرصيد التراثي الذي حفل به تاريخها نجد أدب الرحلات، الذي برز فيه: (عبد الرحمن الثعالبي) (ت: 875ه) –الذي تعدُّ مدوَّنته أساس بحثنا– (وابن حمادوش الجزائري) (توفي حوالي: 1197ه) في رحلته المُسمَّاة: «لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب» [2]، ومفتي المالكية في عصره، الشاعر (أحمد بن عمار الأندلسي الجزائري) (ت: 1206ه) في رحلته الموسومة بـ: «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب» [3]، والحديث عن الرحالة الجزائريين حديث ذو شجون.

وانطلاقا ممّا سبق ارتأينا أن يكون العلامة عبد الرحمن الثعالبي هو الرحالة المعني بالدرس، لأسباب عدّة أهمّها: كون الثعالبي من أوائل الرحالة الجزائريين ولكون رحلته مغمورة مقارنة بما اشتهر عنه من تفسير للقرآن الكريم، أو مقارنة ببقية الرحلات لرحالة جزائريين، إضافة إلى أن الرحلة –بمفهومها الأكاديمي– تشغل مكانة مميَّزة في ثقافتنا العربية، إذ شهدت اهتماما من لدن العرب منذ القديم، فآثرنا أن نعرِّف بعلم الجزائر في هذا الميدان أيضا.

1– ترجمة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي: هو[4] عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، يكنى أبا زيد، ويلقب بالثعالبي الجزائري المغربي المالكي، ولد سنة 785هـ، وقيل سنة 786ه، بوادي يسَّر على نحو ستة وثمانين كيلومترا بالجنوب الشرقي من العاصمة الجزائرية. تلقى مبادئ العلم الأولى على يدي علماء منطقته، ثم توجه لبجاية مستزيدا من العلم، وبعدها إلى تركيا فالحجاز، ليعود بعدها لمصر[5]، ويستقر أخيرا بالجزائر العاصمة مسقط رأسه، حيث انكب على التدريس والتأليف. من جهة أخرى لم تشر الكتب التي ترجمت للثعالبي إلى تاريخ زواجه، بينما ذكرت أن له من الأولاد ثمانية، أربعة ذكور وأربعة إناث. وقد تتلمذ على يد الثعالبي كثيرون نذكر منهم: (أحمد بن عبد الله الزواوي) (ت: 884ه) و(الإمام محمد بن يوسف السنوسي) (ت: 895ه) و(محمد بن مرزوق الكفيف) (ت:901ه) والعلامة (محمد بن عبد الكريم المغيلي) (ت: 909ه) وغيرهم.

ولم يزل –رحمه الله– عاكفا على الطاعات متجرّدا لنشر العلم، إلى أن وافاه أجله صبيحة يوم الجمعة 23 من رمضان 875ه / 1471م، ودفن بمكان يعرف بجبانة الطلبة، خارج باب الواد بالجزائر العاصمة. ولعبد الرحمن الثعالبي أزيد من تسعين مؤلفا، بين متون وشروح وتعاليق وكتب مستقلة في فنون وعلوم عدّة كالتفسير والفقه والحديث والوعظ والرقائق، وجلها مازال مخطوطا، ففي علوم القرآن له: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، و« تحفة الأقران في إعراب بعض آي القرآن»، و«الذهب

الإبريز في غريب القرآن العزيز»، وفي الفقه ألَّف: «روضة الأنوار»، و« جامع الأمهات في أحكام العبادات».

أمّا في الحديث فنجد: «أربعون حديثا مختارة»، و«المختار من الجوامع»، كما كانت للثعالبي مؤلفات في الرقائق وتهذيب النفس وعلوم الآخرة: هي: «الأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة»، و«العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة» وكتاب «النّصائح»، و«جامع الفوائد»، و«الدر الفائق في الأذكار»، و«الإرشاد في مصالح العباد»، و«إرشاد السالك»، وخصَّ الخصائص النبوية بكتاب في معجزاته صلى الله عليه وسلم. كما لأبي زيد الثعالبي فهرس موسوم بـ «غنيمة الواجد وبغية الطالب الماجد»، وهو ثبت لطيف ذكر فيه صاحبه مصنفات الحديث التي اتَّصلت به وبعض أسانيدها وأسماء مؤلفاته، ومدار روايته فيه على الحافظ ولي الدين العراقي إضافة إلى رحلته العلمية التي جعلناها مدونة بحثنا.

كما كان للشعر نصيب من تآليف الثعالبي –وإن كانت جلّها مخطوطة– مثل ذلك لاميته والتي كان لها صدى طيبا في إفريقيا الغربية، ومطلعها[6]:

تَمُرّ اللَّيالِي بِنَفْسِي وَمَالِي *** فَيَا قَوْمِ مَالِي عَنِ المَوْتِ مَالِي
نَهَارِي جِدَالٌ وَلَيْلِي انْجِدَالٌ *** وَحَوْلِي رِجَالٌ عَلَى مِثْلِ حَالي

وقد حظي الثعالبي بثناء عطر من قبل أهل العلم، إذ قال عنه (السخاوي) (ت: 902ه): «كان إماما علامة مصنفا» [7]، وأثنى عليه (التنبكتي) (ت: 1036هـ) بقوله: «الشيخ الإمام الحجّة العالم العامل الزاهد الورع ولي اللَّه الناصح الصالح العارف باللَّه أبو زيد الشهير بالثعالبي، صاحب التصانيف المفيدة، كان من أولياء اللَّه المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد اللَّه الصالحين»[8].

والمستفاد ممّا قدمناه حول حياة الرجل ومصنفاته العلمية هو أنّه راسخ القدم في كثير من العلوم، طويل الباع واسع الاطلاع، وتنوع تصانيفه تدل على ذلك.

2- الحياة السياسية والفكرية لعصر عبد الرحمن الثعالبي: يعدُّ القرن التاسع هجري الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي العصر التاريخي للعلامة عبد الرحمن الثعالبي، ويعتبر هذا العصر مثالا للصراع بين الدويلات، خصوصا وأنَّ الحديث عن عالم جزائري الموطن. لقد كان المغرب العربي في تلك الفترة تحت نفوذ ثلاث دول رئيسة[9] هي: المرينية والزيانية والحفصية، والجزائر بامتدادها الحالي كانت منطقة تتاحر بينها، بحيث كان جزءا كبيرا من الشرق الجزائري اليوم تحت هيمنة الدولة الحفصية، وكان ما يُعرف بالغرب الجزائري تحت نفوذ الدولة الزيانية التي اتخذت تلمسان قاعدتها، أما الوسط الجزائري الحالي فقد كان منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين، ومن ثمة كانت منطقة صراع دائم بين القوتين، من غير إغفال الأطماع الأجنبية للمنطقة.

أمّا من الناحية الفكرية والثقافية[10] فقد عرفت الجزائر مدنا تشّع مدارسها ومساجدها ثقافة ويتغذى منها المجتمع روحيا وعقليا على شاكلة تلمسان وقسنطينة وبجاية ومازونة ووهران والجزائر، ويعدّ «محمد بن يوسف السنوسي» و«عبد الرحمن الثعالبي» من أشهر زهاد وعلماء القرن التاسع، لانتفاع خلق كبير بعلمهما.

3- أدب الرحلة: تراث رحلي تزخر به المكتبة العربية، رحلات لأمصار مختلفة تعتبر مصدرا مهما للتدبُّر، فقد وجد الأنسان ليعمِّر الأرض ويسير في مناكبها طلبا للرزق أو العلم أو الأمان... فكان بذلك أدب الرحلات من أهمّ المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية التي تساعد على فهم الشعوب والتعرُّف على أحوالهم. وعن الرحلة لغة جاء في اللسان: «يقال: رحل الرجل إذا سار(...) ورجل رحال: عالم بذلك مجيد له»[11] ، ومن ذلك أيضا: «الترحُّل والارتحال: الانتقال وهو الرِّحلة والرُّحلة والرِّحلة: اسم للارتحال للمسير»[12]، وعلى هذا فمحور الرحلة هو الحركة والتنقل.

ومن الناحية الاصطلاحية تُعرَّف الرحلة بأنّها «مجموع الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد

مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد» [13]، وعلى هذا فإن الترحال هو ما يجمع بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي.

وعلى هذا تعدُّ الرحلة «إنجازا أو فعلا أو مباشرة لما يعنيه أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة ... ويتأتَّى هذا الإنجاز بالفعل على سبيل الاختيار من أجل هدف معيَّن في الوقت المناسب وعلى الاتجاه الصحيح وبالوسيلة المتاحة» [14] فمهما كانت جوية أو بحرية أو برية، فردية أم جماعية، فإنّها تنطلق من دوافع متعدّدة ومتنوعة، بل وتختلف من شخص لآخر. فقد تكون دوافع دينية كأن يشدّ المسلم رحاله حاجا أو معتمرا لبيت الله الحرام، وقد تكون دوافع الرحلة علمية محضة، يقصد بها المسافر طلب العلم أو الاستزادة منه، وأسباب أخرى سياسية على شاكلة الوفود والسفارت بين مبعوثي الملوك والأمراء والرؤساء، كما نلفي دوافع سياحية تؤطر الأسفار بغية التعرف على أمكنة جديدة، والتنزه ومعاينة آثار السابقين، إضافة إلى الحوافز التجارية والصحية وغيرها.

وعمَّا في التنقل والارتحال والسفر من فوائد، يقول (الإمام الشافعي)[15]:

سَافِرْ تَجِدْ عِوَضاً عَمَّنْ تُفَارِقُهُ *** وَانْصِبْ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ
إِنِّي رأيتُ وُقُوفَ المَاءِ يُفْسِدُهُ *** إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ
والشَّمْسُ لَوْ وَقَفَتْ في الفُلْكِ دائمةً *** لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِن عَرَبِ

فماذا عن رحلة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي؟ ولأيّ هدف ارتحل عالمنا الجليل قاصدا مختلف الأمصار؟ وما هي قيمتها ضمن التراث الرحلي الذي يزخر به التاريخ العربي والإسلامي عموما والجزائري خصوصا؟

رابعا: رحلة عبد الرحمن الثعالبي: يفتتح الثعالبي رحلته المدوَّنة[16] مبيِّنا نوع الرحلة ومكان انطلاقها وزمانها بقوله: «رحلتُ في طلب العلم من ناحية الجزائر من موضع يقال له يسَّر (...) في أواخر القرن الثامن»[17]، ثم يواصل الثعالبي سرد تفاصيل رحلته العلمية، وذلك بذكر المدن التي دخلها والشيوخ الذين أخذ عنهم ولازمهم وإجازة العلماء له، ويذكر بعض مروياته.

وأوّل مكان قصده كان بجاية، يقول الثعالبي: «ثم تناهت بي الرحلة إلى بجاية فدخلتها عام اثنين وثماني مائة»[18] وكانت تعدُّ هذه المدينة حينذاك حاضرة للعلم والثقافة، حيث قضى فيها ما يقرب من سبع سنوات لازم فيها حضور مجالس علمائها وكان عمدته فيهم فقيه بجاية ومفتيها أبو الحسن (المانجلاتي الزواوي) الذي قال عنه الثعالبي: «وعليه كانت عمدة قراءتي»[19].

ثم غادر الثعالبي بجاية قاصدا تونس ويظهر ذلك من قوله: «ثم رحلت إلى تونس فدخلتها في أواخر عام تسعة وثماني مائة أو أوائل عام عشرة وثماني مائة»[(20)]، حيث بقي هناك حوالي ثماني سنوات، التقى فيها بخيرة علماء المنطقة، إذ أخذ عن الغبريني (ت: 813ه أو:815ه)، والبرزلي (ت: 844ه).

وفي سنة 817ه كانت وجهته شرقا، وفي ذلك يقول: «ثم رحلت إلى المشرق ودخلت مصر»[(21)]، حيث لقي بها الشيخ أبا عبد الله محمد البلالي (ت: 820ه) وعنه قال الثعالبي: "فسمعت عنه البخاري وقرأت عليه كثيرا من اختصاره لإحياء علوم الدين" [22]. وفي سنة 819ه رجع إلى تونس فوافى بها مجموعة من العلماء الفضلاء وحصل على إجازاتهم وإذنهم له بالتدريس والتأليف، منهم العلامة (ابن مرزوق الحفيد التلمساني) (ت: 842ه) والذي أجازه بإجازات ثلاث.

وقد ذكر الثعالبي في رحلته مروياته من طرق مختلفة، وأثبت بعض الإجازات التي أجازه بها شيوخه ومن ذلك إجازة ولي الدين العراقي له بقوله: "وقد أجازني شيخنا أبو زرعة وليّ الدين العراقي جميع مروياته على اختلاف أنواعها، وجميع مقالاته على تباين أجناسها ..." [23]. ويختم الثعالبي رحلته بقوله: "وهذا القدر كاف، وقد تركت ذكر كثيرا من العلماء ممّن قرأت عليه وكثيرا من مروياتي خشية الإطالة"[(24)].

وطلبا للاختصار، سنضع بعض الملاحظات العامّة عن الرحلة مضمونا وشكلا مع الإشارة أنّه "لم تظهر حتى الآن نظرية نقدية متكاملة تتناول أدب الرحلات، وإنّما الأمر متروك للاجتهاد الشخصي لكلّ ناقد ولمدى تجاوبه مع النصّ"[25]، آخذين بعين

الاعتبار حجم الرحلة، الذي لم يتجاوز (20) صفحة بما في ذلك الهوامش التي وضعها المحقّق، والتي أخذت جزءا كبيرا من كلّ صفحة.

بداية، يلاحظ أنّ الرحلة غير مستقلة بذاتها في كتاب، إضافة إلى كونها قصيرة مقارنة بالرحلات المطولة التي سعى أصحابها للتفصيل والتوسع.

وقد استهل الثعالبي رحلته –كما سبق ايراده– بمقدّمة تضع المتلقي مباشرة أمام البداية الطبيعية للرحلة من ذكر للقصد وزمن الانطلاق والمكان المراد دخوله ثم بدأ السرد المبسط والدّال على معانيه، من تنقل وتلقّ للعلم من المشايخ وما يتبع ذلك من ايراد الإجازات وغيرها. وقد ذكر الثعالبي أنّه رحل في طلب العلم وهذا يدلّ بذاته على نوع الرحلة، وليس الأمر بالجديد على طلاب العلم، بل إنّ شأن الرحلة في طلب العلم والاستزادة منه قديم، يذكّرنا برحلة نبينا موسى عليه السلام ليلقى الخَضِر عليه السلام، والذي قصَّ الله تعالى رحلته في كتابه العزيز[26]. وقد بقي هذا الهدي وسْما لطلاب العلم في المجتمع الإسلامي، قال (ابن مفلح المقدسي) في الآداب الشرعية: "قال أبو الحارث لأبي عبد الله فترى الرجل أن يرحل لطلب العلم؟ قال نعم قد رحل أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ومَن بعدهم"[27]، ممّا يؤكد شرف الرحلة وهمّة طلاّب العلم في التحصيل المعرفي، بل كان ذلك قد "أصبح في العصور الإسلامية معيارا للحكم على مستوى العلماء والفقهاء"[28]. ناهيك على المشقّة في طلب العلم سفرا وتنقلا من أجل الظفر به، ولا ينكر كلّ ذي لبّ أنّ "الرّحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرّجال"[29]، خصوصا في القديم حيث لم يكن العالَم قرية صغيرة مثلما نتمثَّله في عصرنا هذا.

وعلى مدار رحلة الثعالبي نلفي ظهور مجموعة من أسماء الشخصيات التي عاصرت رحالتنا، و"في أدب الرحلات لا مجال للحديث عن شخصيات رئيسة وأخرى ثانوية، وإنّما الحديث عن شخصيات ثابتة وشخصيات عارضة[30]، والشخصية الثابتة في رحلتنا هذه هي الرحالة عبد الرحمن الثعالبي، بحيث يعتبر محور الأحداث التي

تدور حول تنقله وحصوله على الإجازات وذكر مروياته وهكذا... بينما الشخصيات العارضة في سياق الرحلة فهم العلماء الذين التقى بهم وأخذ عنهم الثعالبي في أثناء رحلته. وشخصية عبد الرحمن الثعالبي من خلال الرحلة تتم عن شخصية عالمة متعلِّمة متواضعة، وقد قدَّمت نموذجا يُقتدى به في العلم والصبر والمثابرة والتواضع. وقد اتضح لنا من المنهج الذي اتبعه الثعالبي في عرض رحلته أنّه لم يجنح لسرد ما رآه أو عاينه أو شاهده أو مرَّ به من غير الأخذ من العلماء، فالطابع العلمي للرحلة هو الذي تحكَّم في سردها.كما تتضح من فقرات المدوَّنة أن الثعالبي قصد الإعلام بمروياته وإجازات العلماء له، والإجازة هي "إحدى طرق التحمُّل والرواية عند المحدِّثين من أهل العلم"[31]، وذلك بسرد الإجازة كاملة –نثرا وشعرا– أو بذكره لما يرويه عن شيوخه ناهيك عن طلب الإذن بالإقراء ونشر العلم.

ولتوضيح هذه الخاصية التي طغت على سطور الرحلة نورد مثالا موجزا عن كلّ نوع، فها هو الثعالبي يستجيز شيخه ابن مرزوق بأدب المتعلّم فيقول: "الحمد لله الذي رفع سنة نبيه فقرنها بالكتاب، وانتخب لروايتها ودرايتها من اختاره من أولي الألباب، فوفقهم للعمل بما علموا (...) أمّا بعد: يقول الفقير إلى خالقه ومولاه العالم بسره ونجواه عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي لطف الله به: هذا استدعاء التمست به من سيدنا وشيخي الإمام الحبر الهمام، حجّة أهل الفضل في وقتنا وخاتمتهم (...) وقدوة المحققين (أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق) حفظه الله على خلقه وأعاد علينا من بركته وبركة سلفه، أن يجيز لي ما له روايته من مسموع ومقروء ومجاز ومناول ومؤلف من فقه وحديث وعلمه، ولغة وتصريف ونحو وبيان، وأصول ومعقول ومنقول، من منظوم ومنثور، وتصوف وآداب وغير ذلك ممّا جرت به عادة الحفاظ والأيمة الأعلام ذاكرا بلسانه كاتبا بخطه مثابا مأجورا بذلك جنات النعيم، ممتعا بالحياة الطيبة، آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما"[32]. فأجاب الشيخ ابن مرزوق –والذي يعتبر من ذوي البسطة في العلم– تلميذه الثعالبي بتواضع العالم في رقعة يجيز له مروياته فيقول:

"الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. أما بعد: فقد أجزت سيدي الشيخ الأجل الفقيه الأنبل، المشارك الأحفل، المحدث الراوية الرُحلة الأفضل الحاج الصالح الأكمل، (أبا زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي)، كاتب اسمه في الصفح الأوّل من الأوراق، جميع ما تجوز لي روايته، وما تصحّ نسبته إليَّ بأيّ وجه يصحح النسبة المذكورة في هذه الأوراق وغيرها على العموم والإطلاق، إجازة تامة مطلقة عامّة، نفعني الله وإياه بما علمنا بمنِّه"[33].

وفي خطاب آخر من الثعالبي لشيخه ابن مرزوق نجده يطلب الإذن بالإقراء ونشر العلم فيقول: « قد أجازني سيدي وشيخي الإمام الصدر الكبير، المحدث الثقة المحقّق (...) أبو عبد الله محمد ابن سيدنا الفقيه الإمام أبو العباس أحمد بن مرزوق، أبقى الله بركته ورفع في العلماء درجته وجعل الأولياء زمرته، جميع ما تجوز له وعنه روايته وأرجو من بركته إذنا بالتحديث عنه وإذنا بإذاعة علم ما تعلمناه منه ومن غيره من مشايخنا رحمهم الله، وإقراء من طلب ذلك من أخ في الله مسترشد أو جاهل يرغب في التعليم، من أهل وولد وقريب وصديق. » [(34)].

فكان جواب الشيخ ابن مرزوق لتلميذه بطبع سلس وصدر رحب: "الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. جميع ما ذكر سيدي الشيخ الفقيه الصالح المبارك الحاج المحدث، الراوية الأكمل، من الإجازة صحيح وأذنت له حفظه الله في التحديث والإقراء وتعليم الجاهلين، وإرشاد المسترشدين، فهو أهل لذلك وسالك إن شاء الله أحسن المسالك أعانني الله وإياه على طاعته، واولانا بحفظه وكرامته. قاله وكتبه عبيد الله تعالى، المشفق من ذنبه المرتجي رحمة ربه محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي، غفر الله له ولطف به بمنه والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى"[(35)]. وهكذا في جلّ صفحات الرحلة نجد أدب العالم والمتعلّم في طلب الإجازة والإذن بالإقراء وذكر المرويات، ممّا يجعل الرحلة تتميز بالطابع العلمي المحض.

وهو أمارة على كون مجالس التحديث في عصر الثعالبي كانت عامرة بالعلماء والمتعلمين، وهذا امتداد للرعيل الذهبي لأمتنا، إذ كانت الإجازة في الصدر الأول مقرونة بالعلم حلا وترحالا، فلا يذكر العلم إلا إذا ذكرت، ولا يعرف العالم إلا إذا عرفها، ولا يميز الحق من الباطل إلا إذا صح سندها"[36].

هذا، إضافة إلى الحضور الواضح للتواريخ في الرحلة، والتي يثبت بها الثعالبي زمن مغادرته مكانا معينا قاصدا مكانا آخر، على شاكلة: ثم تناهت بي الرحلة إلى بجاية فدخلتها عام اثنين وثماني مائة[37]. كما يتّضح لنا أنّ لغة النصّ مكثفة تبسط مجموعة من الحقائق، بحيث يقصد إلى المعنى مباشرة، من غير اهتمام بالتنميق اللفظي، إلاّ ما جاء عفويا تلقائيا، وتغلب أفعال الحركة على جملها لا سيما الاستهلالات التي يعبِّر فيها الثعالبي عن الانتقال من مكان لمكان آخر فنجد (رحلتُ، رجعتُ، دخلتها، أخذتُ، حضرتُ، عاودتُ). وواضح أيضا ذلك الترابط بين فقرات المدونة وأجزائها بوساطة الحروف التي تعنى بالترتيب والتعقيب على شاكلة (الواو) و(الفاء) مثل قوله: ثم رحلت إلى تونس فدخلتها[38]، وغيرها كثير، ممّا يتناسب وسرد الأحداث المتواردة. وهذه الرحلة كما تتبعناها كانت رحلة خصبة في كلّ جوانبها، إذ جاب عبرها الثعالبي بلدانا مختلفة، تونس ومصر وتركيا والعراق وبلاد الشام وبلاد الحرمين، وقد استغرقت حوالي 17 عاما، الأمر الذي ساهم في تكوينه لنظرة شاملة على بلاد المسلمين من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذا الثقافية العلمية من خلال احتكاكه بعلماء عصره.

وعلى أساس ما ذكرناه، فإن عبد الرحمن الثعالبي برع في كثير من الفنون ولا سيما أدب الرحلة، ورحلته تعدُّ مثالا طيبا للرحلات العلمية خصوصا بالجزائر إذ له في هذا المقام القدم السابقة، تُدرك فوائد هذه الرحلة على غير مؤونة، بلفظ مهذب منقح العبارة، وقد كان لها بالغ الأثر في صقل معارفه النقلية والعقلية ويبقى عبد الرحمن الثعالبي فخرا للجزائر العاصمة خصوصا وقطر الجزائر عموما عبر مختلف الأجيال المتوالية.

مصادر ومراجع الدراسة:

– آدم عبد الله الإلوري، الفواكه الساقطة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، مصر.

– إسماعيل البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

– أبو صفوان ذياب الغامدي، الوَجازة في الإثبات والإجازة، ط1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1428هـ، 21.

– أبو العباس أحمد بن عمار، نحلة اللَّبيب بأخبار الرِّحلة إلى الحبيب، طبع بمطبعة بونتانة، الجزائر، 1320ه/1902.

– أبو العباس التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، 2000م.

– أبو عبد الله بن إدريس الشافعي، الديوان (الجوهر النفيس في شعر الإمام ابن إدريس) إعداد وتعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، مصر.

– أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر.

– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، 1998م.

– ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال" تقديم تحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المكتبة الوطنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1414هـ.

– العربي ايشبودان، مدينة الجزائر، تاريخ عاصمة، ترجمة: جناح مسعود، مراجعة: حاج مسعود، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م.

– عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1408 هـ – 1988م.

– خير الدين الزركلي، الأعلام، ، ط15، دار العلم للملايين، مايو، 2002م.

– شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

– صلاح الدين الشامي، الرحلة على الجغرافيا المبصرة، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999م.

– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر –من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر– ، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1400هـ/1980م.

– عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م.

– عبد الرحمن الثعالبي، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد (فهرسة مرويات ومؤلفات عبد الرحمن الثعالبي) ويليه رحلة عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق: محمد شايب شريف، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1426ه، 2005م.

– عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط2، مكتبة الشركة الوطنية الجزائرية، ومنشورات دار مكتبة دار الحياة بيروت،1385ه/1965م.

– علي إبراهيم كردي، أدب الرِّحل في المغرب والأندلس، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2013م.

– كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510–1541)، ترجمة: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007م.

– محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1424هـ / 2003م.

– محمد بن مفلح المقدسي، الآداب الشرعية والمنح المرعية، عالم الكتب.

– مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984م.

– ناصر عبد الرازق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، ط1، دار النشر للجماعات المصرية ومكتبة الوفاء، مصر، 1415ه/1995م.

الهوامش:

[1] العربي ايشبودان، مدينة الجزائر، تاريخ عاصمة، ترجمة: جناح مسعود، مراجعة: حاج مسعود، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م، 15.

[2] ينظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: "لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال" تقديم تحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المكتبة الوطنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

[3] ينظر: أبو العباس أحمد بن عمار، نحلة اللّبيب بأخبار الرِّحلة إلى الحبيب، طبع بمطبعة بونتانة، الجزائر، 1320ه/1902.

[4] ممن ترجموا للثعالبي على سبيل التمثيل لا الحصر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 152/4، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، أبو العباس التنبكتي، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، 2000م، 257-258، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، علق عليه: عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1424هـ / 2003م، 382/1، وفهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، عبد الحي الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م، 733/2-734، والأعلام، خير الدين الزركلي، ط15، دار العلم للملايين، مايو، 2002م، 331/3، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 532/1، وتعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1334ه/ 1906م، 63/1، وتاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ط2، مكتبة الشركة الوطنية الجزائرية، ومنشورات دار مكتبة دار الحياة بيروت،1385ه/1965م، 280/2-285، ومعجم أعلام الجزائر -من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر- عادل نويهض، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1400هـ/1980م، 90.

[5] أثناء عرض الرحلة سنبسط الحديث عن البلدان التي قصدها.

[6] آدم عبد الله الإلوري، الفواكه الساقطة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، مصر، ص:02.

[7] شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 152/4.

[8] أبو العباس التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، 257-258.

[9] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، 1998م، 40، وكورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541)، ترجمة: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007م.

[10] ينظر: المصدر السابق، 44-45.

[11] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1414هـ ، 276/11.

[12] المرجع السابق، 279/11.

[13] مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984م، 17.

[14] صلاح الدين الشامي، الرحلة على الجغرافيا المبصرة، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999م، 11.

[15] أبو عبد الله بن إدريس الشافعي، الديوان (الجوهر النفيس في شعر الإمام ابن إدريس) إعداد وتعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، مصر، 25-26.

[16] قام بتحقيق الرحلة الأستاذ محمد شايب شريف وألحقها بغنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد التي تعتبر فهرسة لمرويات ومؤلفات عبد الرحمن الثعالبي.

[17] عبد الرحمن الثعالبي، رحلة عبد الرحمن الثعالبي، ملحقة بغنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد (فهرسة مرويات ومؤلفات عبد الرحمن الثعالبي) تحقيق: محمد شايب شريف، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1426ه، 2005م، 107.

[18] المصدر السابق،107.

[19] السابق، 108.

[20] نفسه، 109.

[21] نفسه، 110

[22] نفسه، 110.

[23] نفسه، 118.

[24] نفسه، 126.

[25] ناصر عبد الرازق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، ط1، دار النشر للجماعات المصرية ومكتبة الوفاء، مصر، 1415ه/1995م، 257.

[26] وردت قصة سيدنا موسى والخضِر عليهما السلام في سورة الكهف.

[27] محمد بن مفلح المقدسي، الآداب الشرعية والمنح المرعية، عالم الكتب، 51/2.

[28] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، 1989م، 80.

[29] عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، 745.

[30] ناصر عبد الرازق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، ط1، دار النشر للجماعات المصرية ومكتبة الوفاء، مصر، 1415ه/1995م، 210.

[31] كما تعرف الإجازة اصطلاحا بمعناها المطلق بأنها: إذْن المحدث للطالب أن يروي عنه كتابا من كتب الحديث أو غيرها، من غير أن يسمع منه أو يقرأ عليه، ولها معان أخرى بشرط التقييد منها: إجازة الشيخ الطالب بعد السماع من الشيخ مباشرة، أو من غيره، وهو ما يسمى عند المحدثين: سماعا، إجازة الشيخ الطالب بعد قراءة الطالب على الشيخ، وهو ما يسمى: عرضا، إجازة الشيخ الطالب مع مناولة الشيخ الكتاب للطالب، ينظر: أبو صفوان ذياب الغامدي، الوَجازة في الإثبات والإجازة، ط1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1428هـ، 21.

[32] عبد الرحمن الثعالبي، رحلة عبد الرحمن الثعالبي، 113-114.

[33] المصدر السابق، 114.

[34] السابق، 115.

[35] نفسه 115-116.

[36] أبو صفوان ذياب الغامدي، الوَجازة في الإثبات والإجازة، 27.

[37] عبد الرحمن الثعالبي، رحلة عبد الرحمن الثعالبي، 107.

[38] المصدر السابق، 109.